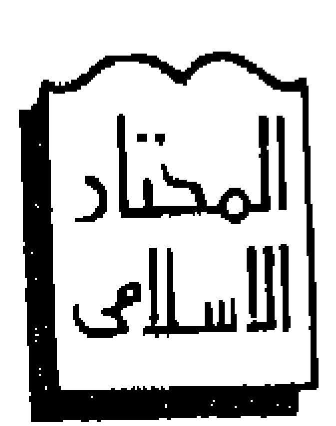

أحمد بهجت
سُبحانَهُ وتعالى
المختار الاسلامي

سبحانه

وتعالى

أحمد بهجت

سبحانه وتعالى



للنشر والتوزيع والتصدير
١٦ شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة
ت ٥٩١١٣٧١ - فاكس ٥٩١١٣٧١ - ص.ب ١٧٠٧ القاهرة


بسم الله الرحمن الرحيم

الكنز المخفي

فى البدء كان الله، ولاشيء مع الله، ولاشيء غير الله، قائم بنوره وكبريائه وحده، استغنى بذاته عمن سواه، وافتقر إليه ماعداه، وماكان هناك سواه، ولا كان هناك ماعداه، ولأن الله تعالى هو الله وهو الخالق، ولانه يعلم سبحانه افتقار من لم يخلق بعد من خلقه اليه، ولأن مشيئته تنفذ بمجرد توجهها إلى الشيء، تشاء إرادته سبحانه الخلق، فيأمر الأكوان بالمثول بين يديه، حضورا من العدم، طائعا أو كارها، فيمثل الكون ساجدا بين يدى الطاعة " ثم استوى إلى السماء وهى دخان، فقال لها وللأرض أئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين"

يقول الحديث القدسى فيما يرويه الرسول عن ربه:

"كنت كنزا مخفيا فأردت أن أعرف فخلقت الخلق فبى عرفونى"

إذا أراد الكنز ان يدل على نفسه، فذلك يعنى انصراف مشيئته إلى العطاء..

ماذا لو كان هذا الكنز هو الله؟ ماذا لو كان دليلك إلى الله هو الله؟

يقول أبو سعيد الخراز " كل مافاتك من الله سوى الله يسير، وكل حظ لك سوى الله قليل.. لو عرفت ذلك لانكشف لك عمق من أعماق الرحمة الإلهية فى الخلق.

لماذا يريد الله سبحانه من خلقه أن يعرفوه؟ ومن هو المستفيد من هذه المعرفة؟

سئل أحد العارفين بالله: لماذا خلق الله سبحانه وتعالى هذه المخلوقات؟ هل كان فى حاجة إليهم؟

أجاب العارف: كلا.. ولكنه خلقهم من أجل حاجتهم هم إليه، ومن أجل ثلاثة أشياء

١ـ لما كانت قدرته أعظم من أن تدرك، كان لابد لها من مشاهدين..

٢ـ لما كانت نعمته أكبر من أن تحد، كان لابد لها من مستقبلين.

٣ـ لما كانت رحمته أوسع من أن تضيق، كان لابد لها من خاطئين!

سبحانه وتعالى.. يخبرنا تقدست ذاته عن استعلاء ذاته وحاجة عباده إذا كان الغنى الحميد يدعو الفقراء إلى مائدته، فأى غرض لهذه الدعوة غير العطاء.. أتسأل عن حدود العطاء وقد جاء من بحار الكرم..

يقول الحق تبارك وتعالى:" وماخلقت الجن والانس إلا ليعبدون"، والعبادة قمة المحبة، لقد شاء الله تعالى لعباده أن يعرفوه، وأذن لهم أن يعبدوه، ولولا رحمته بالناس مامنحهم مجد عبادته، ولأن المجد لا يناله إلا أصحاب المواهب الرفيعة، قل عدد الموحدين وزاد عدد الجاحدين..

عطاء الله

كانت البداية كنزا مخفيا..

ثم شاء رب العالمين أن يكشف عن معجزاته.. من العدم إلى الدخان إلى الماء إلى بلايين النجوم إلى قطعة الصلصال إلى الخلية الحية إلى النوع الإنسانى الذى يكتشف أسرار المادة ويتصل بالسماء ويعرف الحب ويسعى لعطاء خالقه..

أى قدرة من الله وأى حب للانسان.. يقول العارفون بالله "ذكرنا الله قبل أن نذكره، وعرفنا قبل أن نعرفه، وأعطانا قبل أن نسأله، ورحمنا قبل أن نتضرع إليه"

كان سبب خلق الخلق هو انصراف مشيئة الله إلى العطاء.. والعطاء قمة الحب.. هكذا ينظر العارفون بالله إلى العالم.

إنهم يرون الحب قانونا حاكما فى الوجود، ويرون عطاء الله سببا فى ميلاد الكون والإنسان، ويحسون ان رحمة الله نسيج يشف به ثوب الكون على رحابته وجلاله، وهم يرون ان الله قد خلقنا ليتفضل علينا بحبه، ولكى يتفضل علينا مرة أخرى بأن يسمح لنا بحبه..

قرئت هذه الآية أمام جلال الدين الرومى:

"ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله

بقوم يحبهم ويحبونه" بكى شاعر الصوفية الأكبر حين قرئت عليه الآية.. إن الله يتوعد الارتداد عن الدين وهو ظلم عظيم، بأرقى مافى الوجود من مشاعر الحب وقيمه، انه لا يهدد المرتدين عن دينهم بالنار او النحاس المصهور أو العذاب، إنما يهددهم، بأن يستبدلهم بقوم يحبهم ويحبونه. إن القوة التى تهدد الشرك والردة هى حب الله..

سئل جلال الدين الرومى عن العشق فقال: إن العشق هو المحبة بغير حساسية وهو صفة حقيقية لله ، أما اتصاف العبد به فمن قبيل المجاز.. إن كلمة "يحبهم" يقين كامل، أما كلمة "يحبونه" فمن ذا الذى يصدق عليه هذا الوصف..

دعنا نتأمل قليلا فى عبارة جلال الدين.. لماذا يعتبر ان اتصاف العبد بمحبة الله مجاز، بينما اتصاف الله تعالى بمحبة العبد يقين كامل..؟

إن قانون الحب الأعلى هو العطاء.. إذا كان الحب عطاء، فإن الله هو المعطى وحده فى الحقيقة، وهو المتفضل وحده فى الحقيقة.. "وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها" وإذن لايسرى قانون العطاء حقيقة إلا على الله، وليس غير الله تعالى محبا فى الحقيقة.. أما ما عداه من صور الحب فهى صور على سبيل المجاز..

الأحد

على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، نظر المشركون إلى أمر الألوهية بعقولهم البشرية القاصرة، وقاسوا وجودها المطلق على وجود الانسان المحدود، وتوهموا أن لله نسبا كما أن للاتساب نسبا.. ومن ثم فقد قالوا للنبى ـ أنسب لنا ربك.

ونزل الوحى بسورة الاخلاص، وهى سورة قصيرة ولكنها تعدل ثلث القرآن، وتضع قواعد التوحيد الأساسية بآياتها الأربع، وتبين أصول التصور الإسلامى فى حق الله عز وجل وتنزهه عن مشابهة خلقه، وتبين تعاليه على القوانين الحاكمة لهؤلاء الخلق، " قل هو الله أحد".

ينفرد الله سبحانه وتعالى بأحديته فى الوجود والحكم انفرادا لا مثيل له فى انفراد احد بالوجود والحكم، هو الموجود الأحد.. وهو الخالق الأحد، وهو المالك الأحد، وهو المدبر الأحد، والأحد هنا بمعنى الواحد والأول، لاثانى معه سبحانه، ولا معقب على حكمه سبحانه، ولا شريك له فى ملكه، ولا مثيل له فى تدبيره وانفراده، ولا كفؤ له فى جلاله وعظمته، ولا نظير لكبريائه وتعاليه، هذه هى الكلية الأولى فى توحيد الله.

لم تقل الآية الكريمة إن الله واحد، إنما تجاوزت ذلك إلى

تخصيصه بأنه الأحد، والأحد هو الذى لم يزل قبل الخلائق متوحدا بالأزل، لاثانى معه ولا خلق، ثم أبدع الخلق فكان الخلق ثانيا، وخلق الخلق كله محتاجا بعضه إلى بعض، ممسكا بعضه بعضا، واستغنى عز وجل عن الخلائق فلم يحتج إلى شىء، ولا ناوأه شىء، إنما هو السابق الأول الذى كان قبل كل شىء، والواحد من العدد فى الحساب ليس قبله شىء، والأحد اسم أكمل من الواحد، لو قلت فلان لا يقوم له واحد، لجاز فى المعنى أن يقوم له اثنان أو ثلاثة أو أكثر، فإذا قلت فلان لا يقوم له أحد، فقد قطعت انه لا يقوم له أى عدد مهما زاد، فصار الأحد أكمل من الواحد..

"اللهالصمد"..

الصمد هنا صفة من صفاته سبحانه، وهى تعنى السيد الذى لا سيد معه، وهى تعنى السيد المتناهى فى السيادة، وهى تعنى صاحب المجد والسؤدد، وهى تعنى السيد المقصود فى حوائج الخلق، وهى تعنى السيد المطلق الذى بيده ملكوت العطاء كله، وليست هناك مقارنة بين سيادة الخلائق وسؤود الله عز وجل، فالخلائق تعطى مما أعطاها الله، وينفذ عطاؤها عند حد معين، أما الصمد سبحانه وتعالى فيعطى من خزائن العطاء التى لاتنضب..

هذه هى القاعدة الثانية من قواعد التوحيد..

لم يلد ولم يولد

القاعدة الثالثة من قواعد التوحيد إنه سبحانه لم يلد ولم يولد.

تعــالى على أن يلد أو يولد ، لأنه مــــا من شيء يولد إلا وسيمـوت، وما من شيء يموت إلا سيورث، والله يتعالى سبحانه على هذا كله ، فهو الحي الخالد أبدا، وهو الوارث الباقي أبدا.

تصحح سورة الخلاص هنا عقائد الذين قاسوا الألوهية على القوانين البشرية.

يقول الله تعالى للإنسان: إنك تولد وتلد، وتموت وتورث وكل شيء في الكون يخضع لدورة الميلاد والنمو والانحلال والموت، وهذا كله جائز في حق البشر والخلائق ، أما خالق البشر والخلاق فيستعلي على هذا كله.

ويعبر النص القرآني عن هذا بقوله : " لم يلد ولم يولد" فوجود الله قديم، وهو سبحانه يمتد في الأزل من قبل أن يخلق الأزل، وهو يمتد في الزمان من قبل أن يخلق الزمان، وهو يهيمن على المكان من قبل أن يخلق المكان.. لا وجود قبله سبحانه غيره سبحانه، كان الله قبل أن يوجد القبل والبعد والزمان والمكان، هو الأول وهو الآخر، خرج الوجود بكلمة منه سبحانه، وسيذوب الوجود بكلمة منه سبحانه، يعيد بعث الوجود بكلمة منه سبحانه.

تمضى سورة الاخلاص بعد ذلك فى بيان القاعدة الرابعة من قواعد التوحيد

ولم يكن له كفوا أحد

تنفى الآية عن الله وجود كفء له.. أو شبيه أو مثيل.

لا أحد كفء له

لا أحد على الاطلاق

مثلما بدأت الآية الأولى من سورة الاخلاص بقولها : " قل هو الله أحد".. انتهت الآية الأخيرة بقولها : " لم يكن له كفوا أحد".

سبحانه وتعالى على التشبيه أو النظير أو المعادل أو الكفء.

سبحانه وتعالى على كل شيء

الوجود كله بملائكته ونجومه وأكوانه وأراضيه عبيدا أو عبادا.

كل شيء فى الوجود عبد سر شرفه كامن فى ذل عبوديته.

يحدثنا الله تبارك وتعالى عن ذاته بقوله : " ليس كمثله شيء وهو السميع العليم".

كل مافى الوجود من خلائق هو فى نهاية الأمر شيء.. والله ليس كمثله شيء هذه هى سورة الاخلاص التى شرفها الله تعالى ببيان قواعد التوحيد، وهى السورة التى كرمها وجعلها تعدل ثلث القرآن رغم قصرها.

أهمية التوحيد

ماهو التوحيد؟ ماهى أهميته وشروطه؟

التوحيد هو الإيمان بجلال الله وأحديته، وهو ادراك ألوهيته وهيمنته، وهو تصديق ملائكته ورسله وكتبه، وهو اليقين من أن الموتى يبعثهم الله يوم القيامة، وأنهم يقفون أمامه للحساب فى الآخرة، وليس بعد الحساب سوى الجنة أو النار، وهو التسليم بالقدر خيره وشره خيره من الله وشره من الإنسان.

وتتضح أهمية التوحيد من الجهد الذى بذله القرآن الكريم تجاه المسألة، إن آيات الاحكام المبنية لفروع الدين يبلغ عددها ٥٠٠ آية، أما الآيات التى تتحدث عن جوهر التوحيد والعالم الآخر فتتجاوز ألف آية، وهذا يكشف عن اهتمام القرآن بالمسائل الفكرية والقضايا الاعتقادية.

وإذا كان توحيد الله تعالى هو أخطر حقيقة فى الوجود، إلا أن هذه الألوهية لا تعلن عن نفسها فى الحياة الدنيا كما تعلن عن نفسها فى الآخرة.

فى الحياة الدنيا ينجح من يأخذ بأسباب النجاح المادية ، بغض النظر عن حظه من التوحيد ، اما فى الآخرة فيتحول التوحيد من عرض إلى جوهر، ويصبح قبول الاعمال رهنا بوجوده، بل إن العمل

يحبط إذا كان التوحيد غائبا أو مشبوبا بالشرك أو منعدما..

سأل جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم: م الإيمان؟ قال الرسول: أن تؤمن بالله وملائكته ورسله وكتبه واليو الآخر والقدر خيره وشره.. قال جبريل: صدقت هذا هو قانو التوحيد.. وهذه هي شروطه، وأي خروج عن أصل من هذه الأصول يخرج بصاحبه من خيمة العقيدة الإسلامية..

لو قال الانسان إنه يؤمن بالله ولكنه لا يؤمن بملائكته، فهذا الايمان مردود عليه، ولو قال المرء إنه يؤمن بالله وملائكته ولكنه لا يصدق إنه أنزل القرآن على محمد أو التوراة على موسى، فهذا القول كسابقه يخرج صاحبه من قلعة الإسلام والسر في ذلك يسير، إن الإيمان بالله ليس تفضلا من البشر على الله عز وجل، وليس فيه مساومة أو أخذ وعطاء.. وإنما هو منة من الله على عباده :

"قل لاتمنوا على إســـــلامكم، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان".

يجعل الله تبارك وتعالى الإيمان به قضية واحدة تشمل الايمان بكتبه ورسله وملائكته بل إن عداء البشر لواحد من الملائكة يخرج البشر من خيمة الإيمان، وقديما قال اليهود للرسول: من الذي ينزل عليك بالقرآن.. قال جبريل عليه السلام، قالوا هو عدونا. ونزل قوله تعالى مؤكدا إن عداء جبريل يعني الكفر بالله تعالى.

درجات التوحيد

للتوحيد درجات خمس تبدأ بتوحيد الله تعالى فى الذات.. والمقصود بهذا أن الله واحد أحد لاشريك له ولا شبيه ولا نظير ولاكفء.. ولا يتصور له شبيه أو مثيل.. تعالى على الصاحبة والولد، وتعالى على أن يولد أو يلد، وذاته المقدسة ليست مركبة من أجزاء كما هو شأن الأجسام، وليست بسيطة إنما هى ذات تباركت وتعالت ولا تشبهها ذات أخرى.. "ليس كمثله شيء" أما توحيد الله تعالى فى الصفات فالمقصود من ذلك، أن الله تبارك وتعالى، وإن كان متصفا بصفات عديدة كالعلم والقدرة والحياة إلا أن هذا التعدد يجيىء باعتبار المفهوم الذهنى وليس باعتبار الوجود الخارجى، بمعنى أن كل واحدة من هذه الصفات هى "عين" الأخرى وليست "غير الأخرى" وهى جميعها عين الذات وليست غير الذات.

فعلم الله مثلا هو عين ذاته، فذاته كلها علم، وكرم الله تعالى هو عين ذاته، فذاته كلها كرم.. وهكذا.

كل صفة من صفات الله تبارك وتعالى هى عين، الذات وليست غير الذات أما توحيد الله تعالى فى الأفعال فيعنى أن تؤمن أن

الله خلق الأشياء وخلق قوانينها وخواصها ، فلم يستقل شيء بآثاره، ولا خرج شيء عن حكمه، إن الشمس خواصها في الإشراق والطاقة.. وهذا كله من فعل الله ومشيئته.. ولا استقلال للشمس بهذا ولا فعل لها ولا ارادة.. ويورد العلماء هنا آية تلخص المعنى.. فيقول: "لا حول ولا قوة إلا بالله".. هذا قانون ينطبق على جميع الخلائق، سواء كانت عظيمة الحجم كالمجرات أو ضئيلة الحجم كالنملة.. لاشيء يخرج عن حكم الله..

أما توحيد الله تعالى في العبادة فيعنى أن العبادة لاتكون إلا لله وحده، وإنه لا يوجد مستحق للعبادة سواه سبحانه..

وقد قال العلماء إن الخضوع العبودى أمام أحد لا يجوز إلا لسببين، وهما لا يتوافران في السبب الثانى أن يكون هذا المعبود بيده منشأ الانسان ونهايته، أى أن يكون خالقه وواهب الروح له، ومتوليه ومسبغ النعم عليه، بحيث لو قطع عنه فيضه لحظة لاستحال إلى عدم..

هل يتوفر هذان الوضعان في أحد غير الله..

أما توحيد الله في الولاية التشريعية فتعنى الحكم بما أنزل الله.. هذه درجات التوحيد الخمس.

فطرة الله

منذ مايقرب من ٢٠٠٠ سنة، قال بلوتارك المؤرخ الاغريقى الشهير إنك يمكن أن تعثر على مدن بلا أسوار ولا مسارح ولا آداب، ولكن أحدا لم ير قط مدينة بلا معبد.. هذه العبارة القديمة تسجل أن الشعور الدينى أمر ينبع من الفطرة أو يعود إليها. فى الجزء الداخلى من روح الانسان.. يوجد هذا الميل إلى العبادة.. وقديما سأل فرعون مصر رسول الله موسى عن ربه..

- قال فمن ربكما ياموسى؟

قال: ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى.

إن جواب موسى ينطوى على حكمة عميقة، إن جميع الموجودات بما فيها الانسان - تعيش فى ظل هداية تكوينية فطرية.. هداية تقودها إلى الله..

ولقد منح الله تبارك وتعالى لجميع الكائنات هذه الموهبة دون تفرقة.. أى أنه منحهم هذه النعمة بشكل عام، فلم يخلق جماعة.. على فطرة الإيمان ، وجماعة أخرى على غريزة الإلحاد أو الكفر ، انما هى فطرة واحدة فطر الناس عليها.. يقول الحق: " فطرة الله التى

فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله"..

وقد ورد في صحيح البخارى فى تفسير هذه الآية قول الرسول صلى الله عليه وسلم:

ـ مامن مولود إلا يولد على الفطرة، ثم أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" هذا يعنى أن فطرة الله هى التوحيد الخالص.

والفطرة هى الدين الحنيف.. هى الإسلام.. وهى التوحيد.. وقد منح الله تبارك وتعالى للانسان عددا لا يحصى من النعم والمنن، على رأسها نعمة التوحيد، وهى نعمة وزعت بالتساوى على الناس، ثم تفاوتت فيها حظوظ الناس بعد ذلك، وتم ذلك باختيار الناس واستخدامهم لحريتهم.

هناك من رعى هذه النعمة، وجاهد فيها وشكر المنعم عليها، وهناك من أسقط هذه النعمة من حسابه وكفرها ولم يعرف حقها من الشكر أو الحمد..

ولكل واحد سعيه.. ولكل سعى جزاء

وهناك علاقة وثيقة بين نعمة التوحيد.. وكرامة الانسان، فمن العبودية لله وحده تولد حرية الانسان وكرامته.. وبغير التوحيد يصير الانسان عبدا لوهم صنعه بيده أو ساهمت الخرافة فى صنعه.

عهد الله

ماهو مصدر الشعور الديني الذي ينبع من الفطرة؟

في القــرآن الكريم ثلاث آيات تجـيب على هذا الســؤال، هي الآيات التي وردت في سـورة الأعـراف، ويسـمـيـهـا العلمـاء آيات الميثاق أو آيات العهد..

يقـول ربنا سـبحـانه : " وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهـورهم ذريتـهم وأشـهـدهم على أنفـسـهم : أ لست بربكم.. قـالوا : بلى شهدنا.. أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنما أشـرك آباؤنا من قـبل وكنا ذرية من بعـدهم أفـتـهلكنا بما فـعل المبطلون. وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون".

تعني الآيات أن الله تبارك وتعالى قد واجه النوع الانساني قبل مـيلاده من ظهر آدم وحوا.. وسـأل الله تعالى هذا النوع الانسـاني عن خالقه.. وكان السؤال بهذه الصيغة المسيطرة المؤكدة.

ـ ألست بربكم

قالوا: بلى

بهذا تم أخذ العهد على البشر.

اعترف الخلق بالله وهم فى عالم الذر، فى عالم الأرواح، فى عالم الغيب، اعترفوا وأقروا وسجدوا وأقيمت عليهم الحجة البالغة.

كان الموقف سابقا على الوجود البشرى، ولم تكن الأرواح قد ارتدت ثيابها المؤقتة من الأجساد الإنسانية، ذات الصور المختلفة والمصالح المتباينة والظروف الخاصة والمشاعر المتعددة..

كان البشر بغير مصالح أيام أخذ العهد عليهم ولهذا اعترفوا جميعا بألوهية الله وهم "ذر" فى ظهر أبيهم آدم.. وبقى أن يعترفوا بعبوديتهم لله وهم أجسام تدب على الأرض..

إن الاعتراف الثانى تابع للاعتراف القديم الأول، إن الاعتراف بالألوهية يقود مباشرة للاعتراف بالعبودية.. غير أن الناس تختلف حين تهبط إلى الأرض.. فيهم من يذكر هذا العهد القديم، وفيهم من نسيه أو تناساه، وفيهم من يذكره ثم يجحده.. ولهذا تختلف توجهات الناس على الأرض.. وينقسمون إلى مؤمنين وغير مؤمنين..

لقد غرس الله هذا العهد فى فطرة الانسان.. وذكره به فى كتابه، ثم زاد عليه بعث الرسل رحمة منه بالعباد.

حكمة الله

الحكمة هى ثمرة العلوم، وهى احسان التدبير وإصابة التقدير، والله هو الحكيم إذا أطلقت الكلمة.. قال تعالى : " ومامن إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم".

تختلف حكمة الخلائق عن حكمة الخالق.. إن كل حكمة الحكماء تنبع من قطرة واحدة من بحار الحكمة الإلهية، ولا تأخذ من الحكمة الإلهية مايأخذ عصفور يشرب من النهر..

ولقد أخفى الله تبارك وتعالى حكمته عن الخلائق.. حتى عباده المقربين من الملائكة لم يعرفوا حكمته فى خلق آدم، " قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إنى أعلم مالا تعلمون".

ولو أن الحكمة الإلهية تكشف للعبد بأسرارها الكاملة، لذهب اختيار الناس ووقفت حركتهم.. وسجنتهم الدهشة والتحير.

رحمة بالناس، أخفى رب الناس حكمته عن البشر..

أعطى الناس من حكمته قدرا يمكنهم من الخلافة فى الأرض، وتحقيق مشيئته فى عمارة الكون، وأعطى الأنبياء من حكمته قدرا أعلى يمكنهم من الدعوة إليه ورسم آفاق الكمال الانسانى.

وأعطى عبدا من عباده آتاه من لدنه علما، مالم يعطه لنبى من أولى العزم الكبار.. إن موسى كليم الله تحير من سلوك الخضر، ولم يصبر عليه ولم يفهم لماذا يخرق السفينة، ويقتل الغلام الصغير البرىء، ويصلح جدارا فى قرية بخيلة أبت أن تضيفهما.

لقد احتج موسى على تصرفات العبد الذى آتاه الله من لدنه علما وحكمة، وكان احتجاجه منطقيا بمنطق البشر، وكان أمرا طبيعيا للغاية.

لقد وقف موسى أمام العبد الربانى الذى يعلم طرفا من حكمة الله، فلم يصبر عليه " وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا" هكذا حدثه العبد العارف بالحكمة الإلهية.. لقد بدا خرق السفينة عملا عدوانيا بينما كان جوهره الإنقاذ، كما بدا قتل الغلام البريء جريمة كانت حقيقتها الرحمة، وعلى حين ظهر بناء الجدار عملا يخلو من المعنى كانت حقيقته الإحسان والحفظ.

تحير موسى أمام طرف من حكمة الله، وفقد صبره وهو النبى الكريم، فكيف بالناس لو أطلعوا على الحكمة الإلهية.. لهذا جعل الله تعالى أسرار حكمته وقفا على ذاته.. كيف يتصور أن يكشف عن ذاته سبحانه، وهو قد أخفى حكمته..

ذات الله

إذا كانت الحضارة الإسلامية هى المسئول الأول عن قيام المنهج التجريبى فى دنيا المادة، وهى المسئول الأول عن إطلاق العنان للفكر وحثه على النظر والتأمل والسؤال، فإن هذه الحضارة قد أوضحت أن ذات الله تبارك وتعالى ليست مادة تخضع لأسئلة العقل.. وفى عالم الغيب لايلجأ المسلم إلى العقل، إنما يلجأ إلى الوحى ، يأخذ عنه ويكتفى به..

يقول الله تبارك وتعالى عن ذاته انه " لا تدركه الأبصار".. ويقول سبحانه عن نفسه إنه " ليس كمثله شىء"

بعد هاتين الآيتين يصبح السؤال عن ذات الله تعالى إبحارا فى مياه لم ترجع أحدا ممن أبحر فيها.. واذن يمتنع السؤال من باب الرحمة، مثلما تمنع السباحة فى المياه الخطيرة من باب الرحمة.

إن ذات الله تبارك وتعالى تتجاوز طاقة العقل البشرى، وقدرة الفكر الانسانى، يضيع العقل حين يحاول الدنو من تصور الذات الإلهية، مثلما يضيع طفل لو رسم سفينة على الورق وحاول بها عبور البحر.

يخترق العقل ويتبدد ولا يصل لشىء..

سئل أحد العارفين عن الدليل على وجود الله.. قال : الله..

قيل له: فما العقل..

قال: العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله..

لو وضعنا كلمة مخلوق بدلا من كلمة عاجز لكنا أقرب إلى الدقة.. العقل مخلوق لا يدل الا على مخلوق مثله.. والله خالق..

ولعل أجمل ماقيل عن العقل والرب، ماقاله احد الصوفية حين قال ـ العقل دابة توصلك إلى السلطان.. ولكنك لا تدخل بها عليه.. من نقطة البدء هذه ينهى الاسلام عن سياحة العقل فى منطقة الذات الإلهية، احتراما للعقل وخشية عليه، واجلالا للذات الالهية وتقديرها حق قدرها. وقد ضل أقوام كثيرون تكلموا فى ذات الله تبارك وتعالى، وكان كلامهم سببا فى اختلافهم وفتنتهم، ولهذا نهى النبى عن التفكير فى ذات الله.

قال صلى الله عليه وسلم: تفكروا فى خلق الله، ولا تفكروا فى ذات الله فتهلكوا.. ولم يكن هذا المنع تضييقا على العقل، إنما كان انقاذا له وخوفا عليه.

الوعي بالله

الوعى صفة انسانية..

والفرق بين وعى المؤمنين وغير المؤمنين أن المؤمن يدرك بوعيه أنه فقير الى رحمة الله وتيسيره ورضاه، أما الكافر فيعيش عالة على نعم الله دون أن يعى، ولهذا يجحد المنعم..

غياب الوعى بالله عند الانسان يسقط الانسان من كرامته، نحو مرتبة أدنى من الصخور والتراب. ليست العبارة الأخيرة تعبيرا أدبيا وإنما هى قاعدة من قواعد التوحيد..

تقوم العقيدة الاسلامية على وعى الكائنات جميعا بالله، حتى الكائنات التى تبدو لنا عاجزة عن التعبير أو صامتة.. حتى هذه الكائنات تعرف الله بأسلوبها الخاص الذى لا ندريه.. وتسبح له وتسجد دون أن نعرف الكيفية.

اقرأ قوله تعالى : " والنجم والشجر يسجدان، فبأى آلاء ربكما تكذبان".

أو اقرأ قوله سبحانه: " وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم" .

أيضا يحدثنا التصور الإسلامى عن حجارة أرق وألين من قلوب البشر.. استمع لقوله تعالى : " ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى

كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الانهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله".

يصرح النص القرآنى أن هناك حجارة تهبط من خشية الله، أيكون لحجارة الجبل من الوعى الغامض والادراك الصامت ماليس لانسان ينكر الله تعالى؟

الجواب: نعم..

إن الوعى صفة انسانية أصلا، وانخلاعها عن الانسان يعيده عاريا إلى التراب الذى جاءت منه نشأته الأولى، بل إن انخلاع الانسان عن وعيه بإرادته، وكفره بالله تعالى يجعله ينحدر فى مرتبة الخلائق عن درجة التراب الذى جاء منه تأمل قوله تعالى فى القرآن الكريم مخبرا عن أحد الكافرين، وكيف يلقى هذا الكافر أمنيته فى وجه التعاسة التى تنتظره يوم القيامة قائلا:

ـ " يوم ينظر المرء ماقدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا".

وإذن فقد صار التراب أمنية ورغبة مشتهاة.. ولا يكون التراب كذلك إلا إذا كان الانسان بغير وعى أقل منه وأدنى.. من هنا تجىء أهمية الوعى بالله ومعرفته.. بغير هذه المعرفة تصير حجارة الجبل أرق من قلب الانسان. ويصير تراب الأرض أشرف من عقله وأكرم.

رزق الله

لماذا خلق الله الجن والانس؟

يقول سبحانه : " وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين".

فسر ابن عباس كلمة العبادة بالمعرفة، وقرأ الآية هكذا: " وماخلقت الجن والإنس إلا ليعرفون".

والمعرفة أنواع عديدة، منها معرفة الإنسان لنفسه، ومنها معرفة الانسان لأسرار المادة وطبائع الأشياء، ومنها معرفة الإنسان لربه، وهذه المعرفة الأخيرة أخطر من دقات قلب الانسان للانسان.. ونحن نعرف أن توقف القلب يكون ايذانا بوفاة الانسان وعودته إلى التراب، ولكننا لانعرف أن توقف معرفة الانسان بالله تعنى وفاة الوعى الانسانى، وأخطر أنواع الموت موت الاحياء المعنوى الذى لا يدركونه..

وهذا مايكرهه الله لعباده.. إن يكونوا قلوبا لا تشعر، وعقولا لاتعرف، واذانا لاتسمع، وعيونا لاترى.

يأبى الله لعباده أن يكونوا كائنات بغير وعى.. لهذا دعا الله

الخلق إلى عبادته، وأفهمهم أنه غنى عن عبادتهم غنى عن انتظار الرزق منهم، إنما هو الذى يطعمهم ويرزقهم.. وأخطر رزق يسوقه إليهم هو دعوتهم إلى معرفته وعبادته..

تشحب كل أنواع الرزق جوار هذا الرزق.. وتنفد كل أنواع الرزق ويبقى هذا الرزق..

"ماعندكم ينفد وماعند الله باق".

أعظم رزق معنوى فى الدنيا هو العبادة، ويتمثل هذا الرزق فى الإذن لعباده أن يعرفوه، والسماح لهم أن يعبدوه، ولولا لطفه بالخلق وحنانه عليهم ماقدم إليهم مجد عبادته ومعرفته..

إن الله عز وجل غنى عن عبادة العابدين، وهو المتعالى على إنكار المنكرين.. ورد فى الحديث القدسى قوله تعالى: "ياعبادى ، إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى.. ياعبادى.. لو ان أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا ، ياعبادى، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم مانقص ذلك من ملكى شيئا."

إنما يزيد العابد من ملكه هو حين يعبد الله.

وجود الله

تتحكم قوانين النسبية واختلاف مستويات النظر فى رؤية الإنسان.

ينظر الطفل إلى البحر فلا يرى منه غير سطحه الأزرق اللامع، وينظر العاشق إلى البحر فلا يرى منه غير عرق أزرق ينبض فى جبهة الحبيبة، وينظر الصياد إلى البحر فلا يرى منه غير سمكة فى شباكه، وينظر العالم الجيولوجى إلى البحر فيتجاوز السطح والأسماك إلى قاع البحر حيث يتحرك القاع الطينى وتولد البراكين والجزر.

ومثلما تختلف مستويات النظر إلى الشىء الواحد، كذلك يختلف التدليل على وجود الله سبحانه وتعالى:

على أبسط المستويات يمكن أن يبدأ التدليل هذه البداية الديكارتية.. أنا أفكر إذن أنا موجود.. لم أوجد نفسى.. إذن أنا مخلوق.. كونى مخلوقا يقتضى أن يكون لى خالق.. " أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون.. أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون" يطلق علماء التوحيد على هذا الدليل اسم دليل الإبداع أو دليل الوجود..

إن وجود الانسان نفسه اشارة تؤكد وجود الخالق..

ليس هناك انسان يزعم أنه خلق نفسه.. إن الانسان يفاجأ يوما بأنه موجود.. ويفاجأ بأن له ملامح لا يستطيع الفرار منها، وله بصمة أصبع لايستطيع تغييرها، ويفاجأ انه ولد لابوين لم يخترهما وفى بلد لم يختره.. ويفاجأ بأن له لونا معينا وطولا معينا، وقد ورث خلايا وجينات لا يستطيع الادعاء بأنه مسئول عن وجودها.

ويعيش الإنسان على الأرض فيشرب مياها لم يخلقها، ويتنفس هواء لايستطيع الادعاء انه مسئول عن وجوده، وتشرق عليه الشمس كل يوم وتغرب فلايتحكم فى حركتها أو طاقتها من خالق هذا كله؟ ومن الذى يعنى بهذا كله؟

هو الله الذى لا إله إلا هو..

هناك من يرشح لدور الخالق ظنا يسمونه الصدفة.. وهذا وهم بالغ، إن القول بنشوء الكون عن طريق الصدفة قد صار قضية مرفوضة، إن العلم يقطع اليوم باستحالة ذلك، ولو تصورنا أن قردا يجلس أمام الآلة الكاتبة، ويدق عليها كيفما اتفق، يمكن أن تقوده الصدفة إلى كتابة الدراما الشكسبيرية " روميو وجولييت".. لو تصورنا هذا لجاز لنا أن نتصور نشوء الكون، عن طريق الصدفة، بل إن صورة القرد وهو يكتب هاملت أقل جنونا ممن يتصور أن الكون قد جاء صدفة.

إن كل بحث فى الكون يقود الى إعجاز الله وعنايته.. وكل بحث فى الإنسان يقود لإعجاز الله وعنايته.

دليل العناية

يشير العزيز الرحيم إلى آياته التى خلقها فى الكون والإنسان فيقول:

"سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد".

إن الشهادة هنا هى رعاية الله عز وجل وعنايته، وهنا يبرز علماء التوحيد دليل العناية أن كل شيء فى الكون محسوب ومقدر ومحكوم بالعناية الإلهية والقوانين الحاكمة التى خلقها الرحمن.

تأمل قوله تعالى : " الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وسخر لكم مافى السماوات ومافى الأرض جميعا منه، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون"..

إن حكمة تسخير الله للبحر تقود لمعنى العناية الالهية.

إن الحياة تبدأ من الماء.. وبغير الماء تهلك الكائنات على الأرض، وكل مافى الأرض من مياه عذبة هى أصلا مياه قادمة من البحر.. وبسبب حرارة الشمس تتبخر المياه وتصنع السحب، وبسبب اختلاف كهرباء السحب تسقط الامطار، وتدفع الرياح السحب نحو الأرض العطشى لريها.

من الذى يتحكم فى حركة البخار والرياح والأمطار؟ من الذى يتحكم فى دقات قلب الانسان وحركة الدم فى عروقه؟ هل هو الله أم الانسان؟

إن الأرض كرة معلقة فى الفضاء، وهى تدور حول نفسها أمام الشمس، فيؤدى ذلك إلى تتابع الليل والنهار، وهى تسبح حول الشمس مرة فى كل عام، فيكون فى ذلك تتابع الفصول، ويحيط بالأرض غلاف غازى يشتمل على الغازات اللازمة للحياة، ويمتد هذا الغلاف حول الارض الى ارتفاع خمسمائة ميل، وهذا الغلاف يشبه درعا كثيفا يحفظ الأرض من ملايين الشهب القاتلة، وهى شهب تنقض بسرعة ثلاثين ميلا فى الثانية.. ومعظم المعادن توجد قريبا من سطح الارض، ولولا ذلك لاستحال قيام الحضارات القديمة والحديثة ولتعطل نشوء الصناعات والفنون.

وهناك علاقة وثيقة بين حجم الأرض وبعدها عن الشمس وسرعتها فى مدارها، هناك علاقة بين هذا كله ونشأة الحياة على الأرض واستمرارها.

من الذى مهد الارض للحياة الانسانية؟.. ومن الذى أبدع فيها كل ما أبدعه.. ليس هناك سوى جواب واحد.. " بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون"..

تدبير الله

كشف العلم كثيرا من أسرار الكون، وهى أسرار تقود كلها إلى الله.. أيضا كشف العلم أن كل شىء فى الكون محسوب بدقة، ومقدر بعناية، ومحكوم بإتقان، وخاضع لتدبير حكيم.

قال العلماء لو كانت الأرض صغيرة كالقمر لعجزت عن الاحتفاظ بالغلافين الجوى والمائى اللذين يحيطان بها ولصارت درجة حرارتها قاسية لحد الموت، ولو كانت الأرض فى حجم الشمس مع احتفاظها بكثافتها لتضاعفت جاذبيتها للأجسام التى عليها ١٥٠ ضعفا ولنقص ارتفاع الغلاف الجوى من ٥٠٠ ميلا إلى ٤ أميال، ولأصبح تبخر المياه مستحيلا، ولارتفع الضغط الجوى إلى مايزيد على ١٥٠ كيلوا جراما على السنتيمتر المربع، ولتضاءل حجم الإنسان إلى حجم الفأر الكبير. ولتعذرت الحياة الفكرية لمثل هذه المخلوقات ولو ازيحت الأرض إلى ضعف بعدها الحالى عن الشمس لنقصت كمية الحرارة التى تتلقاها من الشمس إلى ربع كميتها الحالية، وإذن تتجمد المحيطات والبحار ويغلف الارض كلها جليد تتعذر فيه الحياة.

ولو نقصت المسافة بين الأرض والشمس إلى نصف ماهى عليه اليوم لبلغت الحرارة التى تتلقاها الأرض أربعة أمثال.. وهذا يعنى أن تغلى مياه المحيطات والبحار والأنهار وتتبخر وسط حرارة تموت

فيها الكائنات.

ذلك أن المادة الحية تحتاج إلى بيئة كبيئة الأرض لكى تعيش، والكوكب الذى يحمل كائنات حية لابد أولا أن تتراوح درجة حرارته بين الصفر و ١٠٠ درجة مئوية، وهو المدى الذى يمكن للماء فيه أن يوجد كسائل.. أما فى الأجواء التى تزيد برودتها عن ذلك، فان التفاعلات الكيمائية لاتتم الا ببطء بالغ.. وفى درجات الحرارة التى تزيد عن ذلك تؤدى الحرارة إلى تحطيم الصلات القائمة بين ذرات الايدروجين والكربون، وهى المقومات الأساسية للمادة الحية.

يعرف العلماء أن كل شىء فى الكون يتحرك، وان بدا شكله الخارجى ثابتا، إن الجبل الثابت ليس كذلك فى حقيقته، فكل ذرة من ذراته تكشف عن عالم من الحركة، أيضا تتحرك النجوم والمدن النجمية أو المجرات، وتسبح فى الفراغ الكونى فلا تصطدم ولا تتداخل مداراتها..

من المسئول عن حركة الأكوان والكائنات؟ من المسئول عن انضباط قوانين الحركة وانسجامها، بحيث لاتصطدم الشمس بالقمر، ولا تقترب الأرض من الشمس فتبتلعها الشمس؟ من هو المسئول عن هذا النظام البديع المحكم الذى يمسك السماوات والأرض أن تزولا؟.. " إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن امسكهما من أحد من بعده، إنه كان حليما غفورا"...

شهادة الله

هناك مستويات مختلفة للاستدلال على وجود الله..

النظرة التقليدية هى البدء من الإنسان والكون.. أن نستدل بوجود الانسان والكون على وجود الله.

هذه نظرة، وهناك نظرة أعلى، هى تجاوز الصور إلى المصور، وتجاوز الكون إلى الله، بمعنى أن نستدل بوجود الله على وجود الكون..

هذا مايفعله العارفون بالله.

يقول النفرى فى كتابه "المواقف والمخاطبات" : إنه يرفض أن يستدل بوجود الكون على وجود الله.

يقول النفرى عن مقام الذات الإلهية: أنا لايستدل علىّ.. إنما يستدل بى. أيضا يرفض ابن عطاء الله السكندرى النظرة التقليدية فى الاستدلال على وجود الله. يقول ابن عطاء الله: كان الكون كله ظلمة، وإنما أناره ظهور الحق فيه، فمن رأى الكون ولم يشهد الله فيه أو عنده أو قبله أو بعده فقد حجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار.

ويقول السكندرى: كيف يتصور أن يحجبه شئ ولولاه ماكان

وجود كل شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذى ليس معه شيء؟

إلهى كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ماليس لك، حتى يكون هو المظهر لك! متى غبت حتى نحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك!

شتان بين من يراه ويستدل به، ومن لا يراه فيستدل عليه".

لايريد العارفون بالله ـ تأدبا مع الله ـ أن يستدلوا على وجوده بوجود خليقته، أو أكوانه، لقد كان الانسان صفرا قبل خلقه، وكان الكون عدما قبل وجوده، وهم يرفضون الاستدلال بوجود الصفر على وجود الواحد الأحد.

قمة النظر عند المسلم هو الاستدلال بشهادة الله عز وجل نفسه.

يقول الله تعالى : " شهد الله أنه لا إله إلا هو، والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم"..

هذه هى شهادة الجلال الخالق.. وهى الشهادة المعتبرة عند أهل القلوب والمعرفة وإذا شهد الخالق.. فأى شيء يبقى للمخلوق أن يقول.

جنود الله

ليس من طبيعة البحر أن ينشق إذا ضربته عصا، ولكن الله شاء لموسى أن يشق البحر بعصاه فوقع الأمر.. كان البحر جنديا من جنود الله إذن، كما كانت الرياح العنيفة التى دمرت قوم عاد جنديا من جنود الله.

تحدثنا العقيدة الإسلامية أن أحداً لا يعلم جنود الله إلا الله.. لايعرف عددهم غير الله، ولا يعرف حقائق مهامهم وسر سرائرهم سوى الله..

قال تعالى : " ومايعلم جنود ربك إلا هو"..

وأشرف جنود الله وأكرمهم هم رسله من الملائكة والبشر.. وكثيرا ما احتاج رسل الله من البشر إلى رسله من الملائكة .. كثيرا مايواجه الخير فى الأرض مواقف يتراجع فيها مرغما أمام الباطل، وفى اللحظات التى يبدو فيها أن المعركة سوف تحسم لحساب الشر، يظهر الملائكة ويتغير الموقف. فى قصص الأنبياء شاهدنا الملائكة كثيرا.. أحيانا يحملون البشرى وأحيانا يحملون العذاب وأحيانا يجيئون للتثبيت.

حين وضع إبراهيم خليل الله تعالى فى المنجنيق وهم الطاغية بإلقائه فى النار وقف جبريل عند رأسه يسأله: يا ابراهيم ألك حاجة؟

لم يكن خليل الله تعالى خائفا أو منزعجا أو مشفقا من النار، إن نار الحب الإلهى فى قلبه أطفأت الخوف من النار التى سعرت لإحراقه.. وأجاب جبريل : أما إليك فلا.. وألقوه فى النار.. وأصدر الله أمره إلى النار : " قلنا يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم".

وفى قصة لوط، حين يحدق الخطر بالنبى ويزداد أنين الباب تحت ضربات الظالمين، ويحس النبى الكريم بالحصار والضيق، يهدئه الملائكة قائلين:

"قالوا: يالوط إنا رسل ربك.. لن يصلوا إليك".

وفى قصة إبراهيم نرى الملائكة يحملون إليه البشرى بالانجاب بعد أن مسه الكبر.. وفى قصة مريم نشاهد جبريل عليه السلام وهو يبشر إبنة عمران بأمومة نبى من أولى العزم وكلمة من الله وروح.

وفى لحظات الخطر فى معارك الإسلام كان الرسول يرى جبريل وهو يأخذ بعنان فرسه ويقوده على ثنايا النقع.

لم يشترك جبريل عليه السلام فى المعارك وإنما كان مجرد وجوده تشبيتا للنبى والمؤمنين.. تقوم عقيدة التوحيد على الإيمان بالملائكة.

هم سفراء الله تعالى لأنبياه، وهم جنوده فى كونه، وهم أنقى خلقه وأقواهم.

الملائكة

الملائكة غيب ينتمي للملأ الأعلى...

ونحن لانعرف متى خلق الله ملائكته الكرام، أكان هذا قبل خلق الكون أم أثناءه أم بعده.

كل مانعرفه أن الملائكة خلقت من نور، وهم أولى أجنحة ترمز لاختلاف مقاماتهم، وهم يستطيعون التشكل فى الصور البشرية، إذا نزلوا إلى الأرض فى مهمة.

ورغم أن جبريل هو الروح الأمين ، ورسول رب العالمين إلى أنبيائه، وسيد الملائكة، إلا أنه فى نهاية الأمر جندى من جنود الله عز وجل، وعبد من عباده، لا يتحرك إلا بأمر مولاه، ولا يصدر منه سلوك إلا بأمر من الله، ولا ينزل إلى الأرض إلا فى شأن من شئون الله.

سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا جبريل: مايمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ ونزل قوله تعالى : " ومانتنزل إلا بأمر ربك، له مابين أيدينا وماخلفنا ومابين ذلك، وماكان ربك نسيا"..

ليس الملائكة أجسادا ظاهرة لنراها ، ولاينطبق عليهم ماينطبق على الأجسام الظاهرة من ميلاد وشيخوخة وموت، ولاينطبق عليهم ماينطبق على البشر، من طعام وأكل وذكورة وأنوثة، إنما هم خلق آخر من خلق الله قائم بالله، ولايتصف بشيء ممايتصف به غيره من

الخلق..

وعدد الملائكة غيب.. لايعرف عددهم سوى الله تعالى، وقد رسم الحديث النبوى صورة لهذا العدد الهائل فى قوله صلى الله عليه وسلم : "أطت السماء وحق لها أن تئط، مامن موضع فيها إلا وفيه ملك ساجد أو وراكع".

وللملائكة عملهم فى الملأ الأعلى ، ولهم عملهم فى الحياة الدنيا.. ولهم عملهم مع العناصر الطبيعية والأكوان.. وقد شرفهم الله تعالى بالطاعة المطلقة، وشرفهم بصفاء لا تخدشه عكارة، وشرفهم بقوة لا حدود لها ، وشرفهم بالقرب منه سبحانه وامضاء أوامره..

وفى الملأ الأعلى، لا حدود لمهام الملائكة، وقد حدثنا الكتاب الحكيم ببعض هذه المهام..

إن السجود لله تعالى من مهام الملائكة ، وهو شرف أسبغه الله على الملائكة، أيضا تحفيظ الملائكة فى الملأ بصحف الله تعالى.

"كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره، فى صحف مكرمة، مرفوعة مطهرة، بأيدى سفرة، كرام بررة" وفى الملائكة من يدخل على المؤمنين فى الجنة، وفيهم من يحرس الجحيم، وفيهم من يشفع للناس من بعد أن يأذن الله ويرضى " وكم من ملك فى السماوات لاتغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى".

***

هموم الملائكة

للملائكة مهام ينفذونها.. ولهم أيضا هموم..

يحدثنا الله عن طرف من هموم الملائكة فيقول سبحانه فى القرآن الكريم: " الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا، ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم، ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم، وقهم السيئات، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته، وذلك هو الفوز العظيم".

أيحس القارىء بالدهشة.

ألا يثير الدهشة أن يهتم الملائكة الذين يحملون عرش الله بالخاطئين من البشر..

ألا يثير التحير أن تكون هموم الملائكة من حملة العرش هى الخوف على البشر من عذاب الجحيم، والدعاء لهم بالفوز العظيم ودخول الجنة..

تعلمنا تجارب الحياة أن معظم الخلق يفقدون رؤوسهم فى الارتفاعات الشاهقة، وربما فقدوا ذاكرتهم ونسوا أصدقاءهم وأهلهم.

إن مجد القمة يفتن المخلوق عادة وينسيه كل شىء، وأى ارتفاع

يحققه الانسان لا يقارن بارتفاع الملائكة من حملة العرش.

تأمل كيف ترسم الآيات صورة مذهلة لنبل الملائكة وكرمهم، إن مجدهم وقربهم من الله لا ينسيهم خطأ الخاطئين وتوبة التائبين فيدعون لهم بالرحمة، ويدعون لهم بالنجاة من أحزان الجحيم، ويستغفرون لهم ، ويدعون الله أن يدخلهم جنات عدن..

ومن المدهش أن أهوال يوم القيامة والبعث والحساب لاتنسى الملائكة رحمتهم بأبناء آدم، ولا ينسون الشفاعة لهم، ويعلق الله سبحانه قبول هذه الشفاعة على مشيئته وعلمه، حتى تفيض الرحمة على من يستحقها.

تأمل رحمة الله بالملائكة ورحمته بالبشر.. وتأمل كرم من تقدست ذاته وتعالت صفاته، لقد صاغ نفوس ملائكته من النبل المحض والنقاء المطلق والرحمة الواسعة.. وأوحى إلى الملائكة أن يستغفروا لأبناء آدم، وبلغت رحمته حدا يقول فيه : " هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما"..

سبحانه وتعالى..

هو أهل الرحمة وهو أهل التقوى وأهل المغفرة....

أنبياء الله

أنبيـاء الله تعـالى ورسله إلى البشـر جزء لاينفـصل عن الإيمان بالله وملائكته، ونحن لا نعرف عدد أنبياء الله ورسله..

حدثنا الله تعالى أنه قص علينا بعض أخبار رسله، ولم يقص علينا أخبار الآخرين..

قال تعالى: " ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك"..

والأصل أن إرسال الأنبياء رحمة، فرغم العهد القديم الذى أخذه الله على أبناء آدم وركزه فى الفطرة المودعة فى النفوس، رغم آيات الله فى الكون والخلائق، رغم هذا وذاك قضى الله تبارك وتعالى قوله : " وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا" وهذا قضاء لم يعامل الناس بالعدل وإنما عاملهم بالرحمة.

ويدعو الرسل والأنبياء إلى الله، ويصححون صورة الخلق عن الله، ويرجعون بالإنسان إلى منابع الإيمان الأصلية كلما زحزحتها ظروف الحياة أو بواعث الهوى أو ضغوط المصالح. ومصدر علم الأنبياء هو الوحي.. وأصل اختيارهم هو اصطفاء الله، وسر اختيار الله لهم هو علمه سبحانه بحقيقتهم...

يقول الحق: " الله أعلم حيث يجعل رسالته"..

ويقول سبحانه: " الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس"..

ومن المعروف أن فضل الاختيار الإلهى لا يمنع فضل الجهد البشرى الذى يبذله الرسول . ويحكم حياة الأنبياء فضل بشرى، وعصمة إلهية.

أما العصمة فتختص برسالته وتوصيلها إلى الناس، هنا يعصمه الله من الخطأ أو القصور، أما فيما يتعلق بالحياة اليومية العادية، فهذه متروكة للنبى يدبرها بعلمه وحكمته ويجرى عليه هنا مايجرى على البشر.

أحيانا يعاتب الله نبيا من أنبيائه، كما عاتب محمد صلى الله عليه وسلم، أو يعاقب نبيا كما عاقب يونس عليه الصلاة والسلام، ولكن العتاب والعقاب هنا أمران خاضعان للنسبية، إن حسنات الأبرار هى سيئات المقربين، وحسنات المقربين يعاتب عليها الأنبياء.

ويؤيد الله تعالى أنبيائه بالمعجزات التى تثبت دعواهم، كانت معجزة نوح أنه مكث يدعو قومه ٩٥٠ سنة، وكانت معجزة ابراهيم انه ألقى فى النار فكانت ـ بمشيئة الله ـ بردا وسلاما عليه، وكانت معجزة موسى عندما تشق البحر وتتحول إلى حية جبارة، وكانت معجزة عيسى هى شفاء المرضى وإحياء الموتى، وكانت معجزة خاتم الأنبياء هو القرآن.. وسلوكا هو القرآن.

كتب الله

الإيمان بكتب الله تعالى جزء من الإيمان بالله، وكتب الله تعالى هى بعض كلماته إلى خلقه، يحملها إليهم رسله من البشر، ويوحيها الله عز وجل إلى رسله هؤلاء.. من هذه الكتب الصحف التى أنزلت على ابراهيم، والزبور الذى أنزل على داود، والتوراة التى أنزلت على موسى، والإنجيل الذى أنزل على عيسى، والقرآن الذى أنزل على محمد، عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام.

والأصل فى كتب الله تعالى انها دساتيره إلى خلقه، والدستور هو القانون الأساسى كما نعلم، أيضا تضم كتب الله وصاياه إلى خلقه، وأحكامه بشأن حياتهم..

ودعوتهم إلى التوحيد والتسبيح والذكر، كما أن فيها مايكشف عن قوانين الله التى قضاها منذ الأزل.

يقول تعالى: " ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون" وقد وردت الاشارة إلى كتب الله تعالى فى آخر هذه الكتب وهو القرآن الكريم، وقد قاوم كثير من الناس فكرة الكتب المنزلة من الله.. وقالوا ما أنزل الله على بشر من شىء.. يقول تعالى : " وماقدروا الله حق قدره، إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا".

من القواعد الأساسية أن كل كتب الله يصدق بعضها بعضا، ويكمل بعضها البعض، ولا تختلف فى أصل أو قاعدة من قواعد التوحيد، إنما تتالى إرسال الكتب الإلهية لأن عددا منها لم يسلم من التدخل البشرى والتحريف، كما أن أصولا خطيرة من أصول التوحيد قد انحرفت بفعل الانسان إلى التثنية والتثليث وماشابه ذلك من العقائد الوثنية القديمة.. يقول تعالى عن اليهود "افتطمعون أن يؤمنوا لكم، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون".

وقد حفظ الله كتابه الأخير وأمر بالإيمان بكل كتبه كما أنزلت.. قال تعالى : " قل آمنا بالله وما انزل علينا وما انزل على ابراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون".

وكتب الله تعالى هى بعض كلماته إلى خلقه وأنبيائه، غير أنها ليست كل كلمات الله. " قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا"... " ولو أنما مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله"..

يوم القيامة

يقوم الإيمان بالله فى العقيدة الإسلامية على الإيمان بيوم القيامة، أو اليوم الآخر، لايكون المؤمن مؤمنا إذا آمن بالله ولم يؤمن بيوم البعث، وذلك يوم قيامة الموتى من الفناء وعودتهم إلى الله..

"أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وإنكم إلينا لاترجعون، فتعالى الله الملك الحق لاإله إلا هو رب العرش الكريم"..

إن الإيمان بالله يضع يدنا على معرفة المصدر الأول الذى صدر عنه الكون، والإيمان باليوم الآخر يحقق المعرفة بمصير الوجود ، ويضع يدنا على النهاية التى ينتهى إليها الكون. ويوم القيامة ضرورة من ضرورات عدل الله، كما أن الجنة والنار ضرورتان من ضرورات رحمة الله وعدله..

كثيرا مانرى الجريمة فى الدنيا تجلس على عرش القوة، وتحكم على الخير بالسجن والتشريد والموت، وكثيرا مانرى الشر يكسب ماكان ينبغى للخير أن يكسبه، وكثيرا ماتنتهى الجولات بين الخير والشر بانتصار الشرور..

وتمضى الأيام ويموت أصحاب القضايا والحقوق، وتطوى الصفحة على الظلم، لو كانت الدنيا هى أيام الله وحدها لكان مايقع فيها

من الظلم أضعاف مايقع فيها من العدل. ولو اقتصر الوجود على الدنيا لكانت أغلبية الوجود ظلما، تبارك الله وتعالى على ذلك لقد خلق الله الدنيا دارا للابتلاء.. وخلق اليوم الآخر دارا للقضاء والحكم.

ماهى قيمة أى انتصار يحرزه الشر فى الدنيا لو عرفت ان جميع القضايا سيعاد نظرها مرة ثانية أمام الله يوم القيامة.. لن يكون القاضى فى هذه المرة إنسانا يمكن التأثير عليه أو خداعه، إنما سيكون الله هو الحكم وهو القاضى..

لن يكون الشهود شهود زور يمكن شراؤهم، إنما ستكون الأيدى والأقدام والعيون والاذان شهودا على الإنسان..

وسوف ينادى الله يوم قيامة المحاكمة الكبرى سائلا

ـ لمن الملك اليوم؟

ـ وسيرد عن الكائنات لسان ذلها وانسحاقها قائلا

ـ لله الواحد القهار

عندئذ يحكم الله على عباده، " ونضع الموازين القسط ليوم القيامة" ويومئذ يتحقق العدل.. يتحقق بشكل مطلق ونهائى وحاسم للمرة الأولى فى الوجود.. "اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم".

البعث

استبعد كثير من الناس فكرة البعث.. كانوا يرون كيف يتحول الموتى إلى عظام ثم يصيرون ترابا تذروه الرياح.. ومن ثم فقد قالوا: " ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر".

وقديما تساءل الناس كيف يعيد الله بعث الأجساد بعد أن تتحول إلى التراب. والحقيقة أنها لا تتحول إلى التراب فحسب، وإنما تتحول إلى ملايين الصور قبل أن تتحول إلى تراب. لقد أكلت إحدى أسماك البحر عين فرعون، ثم اصطاد السمكة صياد، وأكلت ابنة الصياد عين فرعون التى صارت جزءا من نسيج السمكة، ثم ماتت ابنة الصياد فتحولت الى شجرة ورد فى حديقة، ومن عين فرعون نمت شجيرات عشب، وجاءت احدى الابقار وأكلت العشب، ثم ذبح الجزار البقرة، ووزع عين فرعون والسمكة وابنة الصياد على عشرات من الناس فأكل الناس.. مات هؤلاء الناس وصاروا غذاء لاناس آخرين.. كيف يبعث الله عين فرعون الضائعة فى ملايين الصور.. أتظن أن الأمر صعب.

من الصعب علينا نحن أن نبحث عن عين فرعون الضائعة مثلما يستحيل علينا أن نسترد طعاما أكله الذباب منا.

لو كان البعث بيد البشر لاعترفنا بشبهات من ينكرونه، ولكن البعث ليس مهمة البشر، إنما هو قضاء من رب البشر.

وهو يتم بمجرد الأمر.. مجرد توجه المشيئة الإلهية " إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون"

سيأمر الله فرعون أن يقف بين يديه.. استيقاظا من الموت، حضورا من العدم.. من الضياع.. من التشتت.. من التوزع فى ملايين الصور.. مجرد الأمر الإلهى يكفى لحضوره.

قبل أن يولد فرعون كان عدما، كان فناء.. كان صفرا.. ثم كان قطرة من الماء المهين، ثم صار بشرا يملك مصر " أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى" ثم مات الفرعون غرقا وهلك، هل يصعب على من يخلق من العدم أن يعيد بعث صورة ترابية تطايرت مع الريح.. سبحانه وتعالى على الصعوبة والسهولة وكل مسمياتنا البشرية.. قال تعالى : " وضرب لنا مثلا ونسى خلقه، قال من يحيى العظام وهى رميم، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم".

الساعة

إذا جاءت الساعة ، كان هذا إيذانا بانقلاب موازين الكون وانهيار الأرض والجبال والسماوات وكل شيء.

يقول تعالى : " فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة، فيومئذ وقعت الواقعة"..

لايقتصر هول ذلك اليوم على حمل الأرض الثقيلة والجبال الراسخة ودكها دكة واحدة إن السماء فى هذا اليوم ليست بناجية..

يقول تعالى : " وانشقت السماء فهى يومئذ واهية، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية، يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية".

بعد هول يوم القيامة وضجيجه وأصواته المروعة، بعد النفخة الصاعقة فى الصور، بعد صوت دكة الأرض ونسف الجبال، بعد أصوات انفجار السماء وتشققها وانهيارها ، بعد هذا كله ينسدل الجلال على المشهد ويغشيه .. تسكن الضجة ويملأ النور مكان المكان.. ويظهر عرش الواحد الأحد تحمله الملائكة.. يظهر الملائكة فى أرجاء السماء المنشقة وأطرافها.. والعرش فوقهم يحمله ثمانية. ثمانية من الملائكة، أو ثمانية صفوف منهم، أو ثمانية طبقات

من طبقاتهم، أو ثمانية ملايين أو ثمانية بلايين.. أو ثمانية مما يعلم الله..

هذا كله غيب.. عرش الله نفسه غيب.. وعدد الملائكة غيب، وهو غيب سنراه يوم تقوم الساعة ويقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة.. هنالك يقف الانسان للحساب..

"يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية"..

يومئذ تسقط الاستار التى كانت تحجب الأسرار، وتتعرى النفوس تعرى الأجساد، وتبرز الغيوب بروز الشهود..

أخيرا يقف المخلوق أمام خالقه.. تحت عرش الجبار، وأمام الحشد الهائل بلا ستار.. عارى الجسد والقلب والضمير.. عارى الشعور والنية والمقاصد، منتظرا قضاء من لا راد لقضائه.. وحكم من لا معقب على حكمه..

يومئذ يحاسب الانسان.. يحاسبه رب العالمين القائل:

" ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين" أى ضمانات لعدل الحساب بعد هذا الضمان.

الحساب

تقوم العقيدة الإسلامية على الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى سيحاسب البشر يوم القيامة.. وحساب الله تعالى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، ولا يفلت ذرة ولا أقل من الذرة. وثمة قاعدة أساسية تحكم الحساب وتنبئك بدقته وإحاطته.

قوله تعالى :

" مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم"

سنرى يوم الحساب أن الانسان كان خاضعا لرقابة رهيبة دون أن يدرى أو يحس، وسنرى يوم الحساب أن إنكار المنكرين لا يجديهم، وأن محاولات الإفلات لاتنفعهم.

إن الله يشهد عليهم.. والأرض تشهد عليهم وصحف الملائكة تشهد عليهم، وكتب الأعمال المسجلة تشهد عليهم، حتى الألسنة والأيدى والأرجل تشترك فى الشهادة، كما يشترك سمع الناس وأبصارهم وجلودهم فى الشهادة.

كيف تشهد الأرض على الناس؟ روى الرسول أن الأرض تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، كيف تشهد كتب الأعمال

المسجلة على الناس؟ تأمل قوله تعالى : " وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا".

كيف تشهد الألسنة والأيدى والأرجل؟ أنظر قوله تعالى :

"يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق، ويعلمون أن الله هو الحق المبين".

كيف يشهد السمع والأبصار والجلود.. إقرأ قوله تعالى: " ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون، حتى إذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا..قالوا: أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون.. وماكنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لايعلم كثيرا مما تعملون، وذلك ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين".

اذا فرغ الله من حساب عباده، أدخل أصحاب الجنة إلى الجنة، ودفع بأصحاب النار إلى النار..

الإيمان بهذه الحقيقة جزء من الإيمان بالله تعالى..

لايصح إيمان إنسان يؤمن بالله وينكر الجنة أو النار.. وصحيح أن الجنة والنار غيب كالملائكة واليوم الآخر وأسلوب الحساب، ولكن الله حدثنا عن هذا الغيب فوجب الإيمان به.

الجنة والنار

يبشر الله عباده بالجنة، ويخوف الكافرين بالنار، يقول تعالى في صفة النار : " لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل، ذلك يخوف الله به عباده ويا عباد فاتقون"..

ويقول تعالى في صفة الجنة: " وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار"..

والجنة غيب والنار غيب ، وكل ماذكر عنهما من ألفاظ تصف النعيم أو العذاب إنما هى ألفاظ ذكرت لتقريب المعنى من الذهن البشرى، بمعنى أن حقيقة نعيم الجنة أكبر من تصورات البشر، وكذلك عذاب النار.

يحدثنا الله عن الأسباب التى دفعت المجرمين لدخول الجحيم : "قالوا لم نك من المصلين، ولم نك نطعم المسكين، وكنا نخوض مع الخائضين، وكنا نكذب بيوم الدين، حتى أتانا اليقين"..

اليقين هو الموت.. ماتوا قبل أن يتوبوا ولهذا تجاوزتهم رحمة الله.

أيضا يحدثنا الله عن صفات أهل الجنة وأسباب دخولهم لها فيقول: " إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا

ببيعكم الذى بايعتم وذلك هو الفوز العظيم. التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين"..

تقوم العقيدة الإسلامية على الإيمان بنعيم الجنة وعذاب النار، ويحكم هذا الايمان إدراك بأن نعيم الجنة وعذاب الجحيم ليس نعيما حسيا فحسب، وليس عذابا حسيا فقط، ثمة نعيم معنوى أكبر من النعيم المادى، وثمة عذاب معنوى أقسى من نيران الحريق.. ماهو أعلى نعيم فى الجنة وماهو أرهب عذاب فى النار؟

تجاوز بفكرك فواكه الجنة وحورها العين ولحم الطير وكل أنواع المتع، وتجاوز بفكرك نار الجحيم التى تشوى الجلود وتصهر البطون وتغلى بها الأدمغة.. تجاوز هذا كله وارتفع أكثر لقول الله تعالى فى صفة أهل الجنة " وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة" ثم تأمل قوله تعالى فى صفة أهل النار " كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون"..

إن الله العظيم الجليل يحجب ذاته عن أهل النار غضبا عليهم، ويكشف نور حجابه الأقدس فيراه أهل الجنة.. هل أى عذاب أو نعيم نسأل بعد ذلك..

القضاء والقدر

كل أحداث الأرض والأكوان، وكل أحداث التاريخ والزمان، كلها مسجلة عند الله فى كتاب، يعلم الله الأشياء قبل ان تقع، ويحيط علمه بها قبل أن تولد، ولا يخرج شيء فى الكون عن علمه سبحانه، سواء كان هذا الشيء عظيما أو بسيطا.

يقول سبحانه: " ومايعزب عن ربك مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين".

هذا الكتاب المبين هو القضاء والقدر لاينفيان حرية الانسان، ولا ينفيان في نفس الوقت طلاقة المشيئة الإلهية وحريتها..

وعلى أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتوقف أحد من الصحابة ليسأل ـ هل الانسان مخير أم مسير؟ وإذا كان الله يعلم ما سأفعل، فأين حريتى فى الفعل ذاته؟

لم يتوقف أحد ليسأل هذه الأسئلة ، كان واضحا فى أذهانهم أن علم الله السابق هو نور يكشف ماسيحدث، وليس قوة تقهر على الحدوث..

كانوا يدركون المعيار العام للمسألة كلها.. الإنسان مخير فيما يحاسبه الله عليه، وهو مسير فيما لا يحاسبه عليه..

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا ذكر القضاء فأمسكوا، والقدر سر الله فلا تفتشوا عنه وهو بحر لا تغرقوا فيه" يقصد الرسول معنى خطيرا بقوله، ان للقضاء والقدر بناء فوقيا يتصل بإرادة الله ومشيئته وعلمه، وإن للقضاء والقدر بناء تحتيا يتصل بفعل الانسان وكسبه وحركته، البناء الفوقى بالنسبة إلينا مجهول، لا نملك الخوض فيه بعقولنا البشرية، أما بالنسبة للبناء التحتى أو الناس، فنحن نملك التصور القائم على المنطق، ونملك أن نقوم بسياحتنا فى التاريخ لنقرأ سطوره.

قبل الإسلام كان العرب جبرية يقولون بالجبر، ثم جاء الاسلام فغير هذا الموقف وثبتت الحرية والاختيار للانسان، روى عن الحسن البصرى أنه قال: " إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم إلى العرب وهم قدرية مجبرة، يحملون ذنوبهم على الله، ويقولون إن الله سبحانه قد شاء مانحن فيه وحملنا عليه، وأمرنا به، فقال عز وجل: " وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون".

هذا النص يقطع بانتصار الاسلام لحرية الانسان واختياره ووقوفه ضد الجبرية. يروى عن الرسول أن رجلا سأله: متى يرحم الله عباده. قال صلى الله عليه وسلم: مالم يعملوا المعاصى ثم يقولوا أنها من الله.. وسأله بعض الصحابة يوما ، فلأى شيء نعمل وقد فرغ الأمر، قال: أعملوا فكل ميسر لما خلق له.

حق الله

قال معاذ بن جبل

كنت رديف النبى صلى الله عليه وسلم على حمار..

قال لى الرسول: أتدرى ماحق الله على العباد، وماحق العباد على الله؟

قلت: الله ورسوله أعلم

قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولايشركوا به شيئا، وحق العباد على الله أن لايعذب من لايشرك به شيئا..

قلت: يارسول الله.. أفلا أبشر الناس

قال: لاتبشرهم فيتكلوا.

....

أى حسرة على العباد أن يشركوا بالله؟ أى بؤس أن يعبد الناس إلهين أو ثلاثة آلهة، أو آلهة متعددة.. أى ظلم أن يقول الناس أن لله تعالى صاحبة أو ولدا.. إن الشرك هو اعتداء الانسان على حق الله الأساسى على العبيد...

ولقد حدثنا الله سبحانه وتعالى أنه لايغفر الشرك.. " إن الله لايغفر أن يشرك به، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء"..

والشرك أنواع.. هناك شرك صريح لا مواربه فيه، كإنكار الانسان لله والعداء مع الفكرة الإلهية ذاتها، وهناك شرك ساذج كعبادة الأصنام والتماثيل وصور الاجداد والآباء، وهناك شرك يعترف فيه الانسان أن الأرض لله والسماء لله والملك لله ولكنه يضيف مع الله إلها آخر أو ولدا، وهناك شرك يعترف فيه الانسان بوحدانية الله، وينكر وجود أى صاحبة أو ولد أو إله مع الله.. ورغم ذلك تمضى تصرفات الانسان فإذا هو فى الحقيقة مشرك.. وإذا هو يرجو ويخاف الناس أكثر مما يرجو او يخاف الله، ويحب ويطيع البشر أكثر مما يحب ويطيع الله..

قال تعالى : " ومايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون" نزلت هذه الآية فى أهل الأديان السابقة، ولكن العبرة فى آيات القرآن بعموم اللفظ لابخصوص السبب.

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

ـ الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على شيء من الجور وأن تبغض على شيء من العدل.. وهل الدين إلا الحب والبغض. إن التوحيد يتطلب من المسلم أن يكون فى حبه وكراهيته تابعا للعدل، فلا يحب ظالما أو يكره عادلا.

رحمة الله

بحار الرحمة الالهية بلا ساحل..

ليس لها ابتداء وليست لها نهاية.. هى بحار بلا قاع ولا قرار ولاشاطئ، لايأخذ منها الخلق الا بمقدار مايأخذ الطفل من مياه المحيط فى حفرة حفرها على الشاطئ.

تأمل صور الرحمة الإنسانية على الأرض.. رحمة الآباء بالأبناء، ورحمة الأخلاء بالأصدقاء، ورحمة العاشقين بمن يحبون، ورحمة الإنسان بالحيوان، ورحمة الحيوان بالحيوان.

تأمل هذا كله خلال تعاقب الأيام والعصور وتتالى القرون والدهور ، تصوره منذ أن خلق الله الأرض حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

هذه الرحمة الهائلة كلها جزء من مائة جزء خلقه الله، واحتفظ لنفسه بتسعة وتسعين جزءا وأنزل فى الأرض جزءا.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " جعل الله الرحمة مائة جزء، فأنزل فى الارض جزءا واحدا ، فمن هذا الجزء تتراحم الخلائق، حتى لترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه.".

لاحدود لرحمة الله عز وجل

ومن الخطأ أن تقاس عليها الرحمة البشرية أو تقارن بها..

رحمة الإنسان سجينة فى حدود طاقته المحدودة، وهى مقيدة على قدر عطائه الذى ينفد، وما أسرع ملك الرحمة الإنسانية.

أما الرحمة عند الله فأفق أعلى من أن يستشرف ، وهى عمق بلا نهاية.. وهو سبحانه الذى وسع كل شىء رحمة وعلما..

افتح أى سورة من سور القرآن تجدها مبدوءة باسم الله الرحمن الرحيم.. والاسمان مشتقان من الرحمة وهما من أسماء الله الحسنى، ورحمة الله تعالى رحمة تامة تضفى الخير على المحتاجين، ورحمة عامة تتناول المستحق وغير المستحق، هى إذن رحمة تامة عامة. إنه يرزق الكافرين والمؤمنين معا فى الدنيا، ويقدم للكافرين آلاف الفرص للنجاة والتوبة، حتى قال العارفون بالله أنه يسوق الناس إلى الجنة بالسياط..

لايكاد الانسان يبدأ احتراقه فى ندم التوبة، حتى ينطبق عليه قوله تعالى : " إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما".

يقول العلماء إن هذه "أرجى" آية من آيات الرحمة فى القرآن، فإن الله جل شأنه وعد التائبين المصلحين أن يبدل سيئاتهم حسنات، وليس بعد هذه الرحمة مقام.

شئون الله

قبل الخلق كان لله شئون..

وبعد الخلق كان لله شئون

وبعد أن يبيد الخلق سيكون لله شئون..

وهو سبحانه وتعالى القائل : " كل يوم هو فى شأن" .

وللبارىء الخالق شئون لاندريها ، وإن كنا نحس ببعضها خلال رحلة الحياة البشرية على الأرض..

الوقت مثلا شأن من شئون الله، والكون شأن من شئون الله، والحياة على الأرض والموت شأنان من شئون الله، وكل جمال فى الكون أو خير هو شأن من شئون الله، الزمان نفسه هو الاستمرار والتوالى المتجدد لشئون البارىء عز وجل.. ولله تعالى كما يقول العلماء شأنان معروفان هما الرحمة والقهر، أو هما الجمال والجلال فى اصطلاح الصوفية.. فالرحمة هى شأن الجمال، والقهر هو شأن الجلال.. وهما ينعكسان على صفحة الزمان..

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : " كل يوم هو فى شأن" فقال من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا ويرفع قوما ويضع آخرين".

ويحدثنا القرآن الكريم عن طرف من شئون الله التى تتصل بحياتنا فيقول: " قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير".

وشئون الله تعالى لا تغادر صغيرة ولا كبيرة، ومن ثم فإن السؤال والدعاء شأنان من شئون الله : " يسأله من فى السماوات والأرض كل يوم هو فى شأن".

فسرها ابن قيم الجوزية بقوله: يغفر الله ذنبا ويفرج كربا ويكشف غما وينصر مظلوما ويأخذ ظالما ويفك عانيا ويغنى فقيرا ويجبر كسيرا ويشفى مريضا ويقبل عثرة ويستر عورة ويعز ذليلا ويذل عزيزا ويعطى سائلا ويذهب بدوله ويأتى بأخرى ويداول الايام بين الناس ويرفع أقواما ويضع آخرين ويسوق المقادير التى قدرها قبل خلق السماوات والأرض فلا يتقدم منها شىء عن وقته ولا يتأخر شىء منها عن موعده فكل شىء أحصاه فى كتابه وجرى به قلمه ونفذ فيه حكمه وسبق به علمه وهو المتصرف فى الممالك كلها، تصرف ملك قادر قاهر.. رحيم .. عادل.. سبحانه وتعالى.

رؤية الله

بعين البصر فحسب.. وبأنوار العقل وحدها، تستحيل رؤية الله تبارك وتعالى فى الأرض لايصمد الجسد البشرى لأنوار الله عز وجل، ولا يتماسك أمام جلاله وكبريائه.. تقوم العقيدة الإسلامية على هذه الحقيقة.

يحدثنا القرآن الكريم أن كل محاولات البشر التى تستهدف رؤية الله عز وجل أو رؤية القدرة الخالقة وهى تعمل، قد اصطدمت بالمستحيل.

لقد طلب اليهود فى زمن موسى أن يروا الله جهرة، وأصروا على ذلك وأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، وبعثهم الله بعد موتهم لعلهم يشكرون.. يقص الله تبارك وتعالى قصة نبيين أحبا الله، وطلب أحدهما رؤيته، وطلب الثانى رؤية أسراره فى إحياء الموتى.

كان موسى هو النبى الذى طلب الرؤية، وكان إبراهيم هو النبى الذى طلب رؤية إحياء الموتى.. قال موسى: رب أرنى أنظر إليك.. وقال إبراهيم.. رب أرنى كيف تحيى الموتى..

وكان جواب الحق عز وجل عن سؤال موسى : لن ترانى:

وكان جوابه عن سؤال إبراهيم : أو لم تؤمن؟

وكان المعنى فى الحالتين استحالة الرؤية على الأرض، لجلال الله

وعجز البشر، ولأن الله عز وجل " لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير".

يقول الله تعالى : " وماكان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مايشاء".

كان الحق سبحانه يكلم موسى من وراء حجاب، واندفع موسى كعاشق لله وطلب المحال ناسيا أنه محال.. ورده الله برفق إلى الحقيقة، " قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا".

صعق موسى ومات وبعثه الله " فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين"

إذا كانت رؤية الله تعالى فى الدنيا مستحيلة، إلا أن رؤيته فى الجنة جائزة..

يقول تعالى: " وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة" قال القشيرى فى تفسيره للآية:

- إن النظر المقرون "بإلى" مضافا إلى الوجوه لايكون إلا للرؤية، وكأن القشيرى أحس بالرهبة وعدم معرفته كيف يكون ذلك فقال: " يخلق الله الرؤية فى وجوههم فى الجنة على غير العادة، فالوجوه ناظرة إلى الله، والعين من جملة الوجه، فالعين فى الوجه تنظر، والوجه لا ينظر، كما أن النهر لايجرى، والماء فى النهر يجرى".

أسماء الله

قال تعالى : " ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ماكانوا يعملون".

وقال صلى الله عليه وسلم: إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة.. وفى رواية أخرى قال من حفظها دخل الجنة.

ماهو المقصود بحفظ الأسماء أو احصائها..؟

نريد أن نستبعد من الحفظ معنى التلقين الذى صارت إليه حضارتنا حين أخلدت الى الأرض، ونريد أيضا أن نستبعد من الإحصاء معنى العد.

المقصود من حفظ الأسماء هو حفظ أمانتها ، هو حمل أمانتها وعدم تضييعها ، المقصود من إحصاء الأسماء هو شهود حقيقتها ، والأسماء الحسنى بوصفها المثل الأعلى والحقيقة المطلقة، هى هدف المسلم فى حياته على الأرض، وبقدر مايحمل المسلم من أسماء الله الحسني، يكون حظه من التوحيد.

وقد أدرك العلماء هذه الحقيقة قديما ، أفضل من إدراكنا لها اليوم.

منذ ٩٠٠ عام عل التقريب كتب حجة الإسلام أبو حامد الغزالى

كتابه : "المقصد الأسنى فى شرح اسماء الله الحسنى".. وقد لاحظ حجة الإسلام هذه الصلة بين أسماء الله الحسنى وأخلاق المسلم، فكتب فى نهاية شرحه لكل اسم تنبيها يقول فيه:

ـ وحظ العبد من هذا الاسم أن يتخلق بأخلاق الله فيكون كذا وكذا..

وهذا هو الاتجاه الذى تؤيده العقيدة الإسلامية.. إن حمل الأمانة يقتضى المعرفة، والمعرفة طريق إلى التعلق والتخلق،، وبقدر مايتعلق المسلم بأسماء الله، وبقدر مايأخذ من أخلاقها يكون قد أخذ من التوحيد..

هنا ينكشف التوحيد عن سره.. ويكشف قانونا أساسيا من قوانينه.

ذلك هو قانون العلاقة بين فكرة التوحيد، والعمل على تغيير الحياة.

إن الصلة بين التوحيد والحركة، كالصلة بين اليقظة والعقل، إذا وجدت اليقظة تحرك تيار الأفكار فى العقل.

إذا وجد التوحيد، تغير شكل المجتمع من شىء إلى أفضل، والدليل على صدق هذا القانون شكل الحياة فى مكة قبل نزول الإسلام، وشكل الحياة فى المدينة بعد قيام دولة الموحدين.. إن الفرق بين الظلم والعدل هو الفرق بين مجتمع مكة الوثنى ومجتمع الموحدين فى المدينة المنورة.

التوحيد والفعل

لايكفى أن يكون الله في قلوب الناس، بينما الشيطان هو الذى يحكم المجتمع.

هذا أمر لايصح ولا يجوز منطقيا.. والأصل أن التوحيد نزل للبشر، ولم يكن أثره قاصرا على عمله فى النفوس وحدها، إنما امتد أثره إلى المجتمع.

يعتقد مالك بن نبى أنه لو كان التوحيد متصلا بالنفوس دون المجتمع لبقى النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة لايغادرها، فقد آمنت معه فى مكة نماذج كثيرة ورفيعة وتربى فى جامعة النبوة أبو بكر وعمر وعلى وعثمان، وكان الإيمان فى النفوس قد بلغ ذروته.. ورغم ذلك هاجر الرسول..

خرج من مكة وهدفه المدينة.

لماذا خرج؟

لأن الإسلام عقيدة توحيد تعمل عملها فى نفس الإنسان فقط، ولا تتعدى النفس للمجتمع.. هاجر الرسول لأن الإسلام يحتاج إلى مجتمع مسلم، ودولة تحكم بالقرآن، وعلاقات إنسانية رفيعة.

لقد غابت أهم حقيقة من حقائق التوحيد عن وعى المسلمين اليوم..

إن التوحيد لم ينزل على الرسول ليملأ به القلوب والعقول

فقط. إنما نزل التوحيد ليعمل أثره فى الحياة، وينظم المجتمع ، ويعيد خلقه من جديد على الصورة التى يرضاها رب العالمين لعباده ليس الإسلام دينا يمكن لأتباعه ممارسة طقوسه بعيدا عن المجتمع.. ليس الإسلام دينا يمكن الخروج به إلى الجبال والمغارات والصحاري..

الإسلام دين ودنيا ، عبادة وعمل.. روح وسياسة.. إيمان واقتصاد .. يتدخل الإسلام فى علاقات الرجل وزوجته وخادمه وأمه وأبيه، يتدخل الإسلام فى الزواج والحب والطلاق والميراث والسياسة والحكم والاقتصاد والبنوك،يضع الدستور لهذا كله ويترك للعقل فرصته فى الاجتهاد.

إن رقى شخصية المسلم وتقدمه ونهوضه هو هدف الإسلام، إن سعادة الانسان هى هدف الإسلام، ولقد كان طبيعيا أن النظام الذى جاء به الرسول لم يختص بالشئون الروحية فقط ولم يبسط مفهوم العلاج الفردى فقط، بل عرض أيضا مفهوم المجتمع العادل الذى يجب ان يوجده الإنسان الموحد. ولقد استطاعت دعوة التوحيد أن تؤثر فى نفس الإنسان وتغير من شكل الحياة.. ونشأت أول حضارة للموحدين.. كانت الدفعة الأولى قوية حقا ، فقد وجد الانسان طريقه للخلاص، ووجد المجتمع طريقه للخلاص أيضا.. وتم التوازن بين حاجات الإنسان وأحلامه كما أفسح المجتمع الطريق لتقدم الإنسان الروحى والمادى.

كتب قامت بنشرها المختار الاسلامى للاستاذ احمد بهجت :

١ – أسماء الله الحسنى

٢ – الوقوع فى هوى الكعبة

٣ – جواهر القران

٤ – التواصل الحضارى لاحفاد الامام البخارى

٥ – رائد الحركة الاسلامية فى تركيا

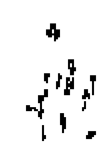
٦ – سبحانه و تعالى

٧ –مسرور و مقرور


الفهرس

	الصفحة
الكنز المخفى	٤
عطاء الله	٦
الأحد	٨
لم يلد ولم يولد	١٠
أهمية التوحيد	١٣
درجات التوحيد	١٥
فطرة الله	١٧
عهد الله	١٩
حكمة الله	٢١
ذات الله	٢٣
الوعى بالله	٢٥
رزق الله	٢٧
وجود الله	٢٩
دليل العناية	٣١
تدبير الله	٣٣
شهادة الله	٣٥
جنود الله	٣٧

	الصفحة
الملائكة	٣٩
هموم الملائكة	٤١
انبياء الله	٤٣
كتب الله................................	٤٥
يوم القيامة	٤٧
البعث................................	٤٩
الساعة	٥١
الحساب	٥٣
الجنة والنار................................	٥٥
القضاء والقدر	٥٧
حق الله................................	٥٩
رحمة الله................................	٦١
شئون الله	٦٣
رؤية الله................................	٦٥
اسماء الله	٦٧
التوحيد والفعل................................	٦٩



رقم الايداع ٩٩٨٤/ ٩٥
977-220-123 -2

الكنز المخفي

- فى البدء كان الله، ولاشىء مع الله، ولاشىء غير الله، قائم بنوره وكبريائه وحده، استغنى بذاته عمن سواه، وافتقر إليه ماعداه، وماكان هناك سواه، ولا كان هناك ماعداه، ولأن الله تعالى هو الله وهو الخالق، ولانه يعلم سبحانه افتقار من لم يخلق بعد من خلقه اليه، ولأن مشيئته تنفذ بمجرد توجهها إلى الشىء، تشاء إرادته سبحانه الخلق، فيأمر الأكوان بالمثول بين يديه، حضورا من العدم، طائعا أو كارها، فيمثل الكون ساجدا بين يدى الطاعة " ثم استوى إلى السماء وهى دخان، فقال لها وللأرض أئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين"
- يقول الحديث القدسى فيما يرويه الرسول عن ربه :
"كنت كنزا مخفيا فأردت أن أعرف فخلقت الخلق فبى عرفونى"
- إذا أراد الكنز ان يدل على نفسه، فذلك يعنى انصراف مشيئته إلى العطاء..
- ماذا لو كان هذا الكنز هو الله؟ ماذا لو كان دليلك إلى الله هو الله؟
- يقول أبو سعيد الخراز " كل مافاتك من الله [illegible] يسير، وكل حظ لك سوى الله قليل.. لو عرفت ذلك [illegible] عمق من أعماق الرحمة الإلهية فى الخلق.

٢٠٠ قرش